

التنصص القرآني في شعر الشيخ عبد القادر الجيلاني - خصوصية التوظيف -

أ.قيداري قويدر
جامعة معسكر

ملخص:

سنتناول في هذه الدراسة شعر الشيخ الجيلاني في علاقاته التنصصية مع القرآن الكريم باعتماد الأدوات الإجرائية التي اقترحها د/ محمد مفتاح، وعمدنا إلى مسائلة مدونتنا بالتركيز على علاقاتها الحوارية وخصوصياتها التداولية.

1- مفهوم التنصص :

أ- المصطلح: مصطلح " التنصص " مقتبس من الكلمة الأجنبية "intertextualité" التي ظهرت في اللغة الفرنسية سنة 1958، حسب ما هو مذكور في المعجم الفرنسي "Le Petit Robert"، وهي منحوتة من كلمتين: "inter" المختصرة من "intérieur" بمعنى (داخل)، و"textuel" نسبة إلى "texte" بمعنى(نصّي). (الحسني،م. 2007: 20)

ب-المفهوم: التنصص هو: "مجموع العلاقات الموجودة بين نص أدبي ونص أو نصوص أخرى يقوم القارئ اعتمادا عليها بمقارباته. (الحسني،م. 2007: 20) لا يمكن عزل فكرة التنصص في أصلها، عن الأعمال النظرية لجماعة: "Tel quel" ومجلتها الحاملة لاسمها التي تأسست سنة 1960، ففي سنة 1968/1969 ظهر بشكل رسمي المفهوم الجوهري للتنصص في المعجم النقدي للطليعة من خلال إصدارين: -الأول: بعنوان "نظرية الجماعة" وهو مؤلف جماعي شارك فيه كل من: فوكو، وبارث، ودريدا، وسوليرس، وكريستيفا .

-والثاني: بعنوان "سيميوطيقا البحث من أجل تحليل دلالي" لجوليا كريستيفا "سنة 1969م، ويجمع سلسلة من المقالات كتبها بين سنتي (1966-1969). (الحسني،م. 2007: 28-29)

اعتبرت جوليا كريستيفا التنصص : ترحالا للنصوص وتداخلا نصيا، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى. (كريستيفا،ج. 1991: 21)

لن نتعرض لمفهوم التناص لدى النقاد أو البلاغيين العرب القدامى، رغم أنهم وضعوا لذلك مصطلحات متقاربة في مفاهيمها بل أحيانا تطابقت كثير منها مع مفهوم التناص (من تلك المصطلحات، نذكر: الاحتذاء، المحاكاة، الاستشهاد، التضمين، السرقة، التداخل...)، فالحديث حول هذا الموضوع قد يطول وربما يستهلك كتابا مستقلا، كما أن مسار هذه الدراسة وغرضها لا يسمحان بذلك على أننا سنكتفي فقط بإثبات مفهوم التناص عند أحد النقاد والدارسين العرب المعاصرين وهو د/ محمد مفتاح لكون هذه الدراسة ستستعين بأدواته الإجرائية التي صاغها حول المفهوم (التناص).

ج_ مفهوم التناص عند محمد مفتاح: اعتبر د/ محمد مفتاح "التناص": فسيفساء من النصوص المتعلقة مع نصٍّ ما، يمتصها ويصيرها من عندياته أو يحولها بالتمطيط والتكثيف بقصد مناقضتها أو تعضيدها (الحسني، م. 2007: 47).

يرى محمد مفتاح أنه في كل تناص، لا بد من مقصدية وتماثل أو تشابه مع النصوص المستدعاة، وموقف ما قد يكون سخرية أو تعصيذا:

1- فالمقصدية : هي ما يكون محركا للمنتج وللمتلقي من معتقدات وظنون وأوهام بوعي أو بدون وعي.

2 - المماثلة والمشابهة: هي نسبة الاتفاق بين المتناصين بحيث تعني المماثلة الاتفاق في أغلب العناصر الذاتية بينها، وتعني المشابهة الاتفاق في أقل ما يكون منها.

3 - نوع العلاقة: هي تلك التي يربطها النص اللاحق مع النص السابق، وهي على العموم إما علاقة تعصيد أو علاقة تنافر.

وتتفرع العلاقة التعصيديّة حسب محمد مفتاح إلى: (التبجيل- الاحترام- الوقار "التوقير")، أما العلاقة التنافرية فتتفرع إلى: (الاستهزاء- السخرية- الدعابة) (الحسني، م. 2007 : 51).

2- الأثر القرآني في التراث الصوفي:

كان القدماء صوفية وفقهاء وشعراء وعلماء في الغالب الأعم يعتبرون أن تنمية ملكة اللسان لا تكون إلا بحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والأخبار والشعر القديم، بل إن المنظومة التعليمية آنذاك كانت مبنية على هذه المسلمة. والقرآن الكريم أصل الأصول، ومصدر مصادر المعرفة الإسلامية على اختلاف مذاهبها ومناهجها العقلية، وسننها الباطنية والظاهرية، وهو العلة الأولى لنشأة الفكر الإسلامي وتشعب فنونه، وثراء علومه.

أما الصوفي صاحب القلب العاشق، فيجد سرّ معرفته في عين التنزيل الإلهي ونبع ينابيع غيث رحمته، فهو "البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين". وصلة الصوفي بقرآنه تبدو جلية في مقولة سهل التستري: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان": ظاهر وباطن، وحدّ ومطلّع، فالظاهر: التلاوة،

والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها، والمطلع: إشراف القلب على المراد بها فقهاً من الله عز وجل. (أمين أحمد، ع. 1992: 106)

وقد أورد ابن عجيبة تفسيراً جميلاً يتضمن تناصاً وتأويلاً ومحاكاة للنظم القرآني لقوله تعالى: (وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي....) [طه الآية 17] حيث يقول: "يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير (الصوفي)؟ قال: هي دنيائي أعتمد عليها في قيام بنيتي وأنفق منها على عيالي، ولي فيها مآرب أخرى أتصدق منها... فيقال: له ألقها من يدك. فألقاها فإذا هي حية تسعى كادت تلدغه في قلبه وتشغله عن شهود ربه، فلما فر منها وآيس من نفعها، قيل له: خذها ولا تخف لأنك غني بالله عنها، فتأخذها بالله، لا بنفسك، وتدفعها كذلك (الصغير، ع. 1999: 87).

فالمعرفة الصوفية الظاهرة والباطنة تصدر عن ينبوع قرآني وقد انعكس ذلك في منتوجهم شعراً كان أم نثراً، بل كثيراً ما كان النص القرآني نفسه في قفص الاتهام بداعي محاولة محاكاة النظم القرآني؛ يقول الحلاج: "القرآن لسان كل علم... وفي القرآن علم كل شيء..." (الصغير، ع. 1999: 107-108)

"فالحلاج يحاكي النظم القرآني في أسماء سوره ليصنف سفره "الذاريات ذروا" والنجم إذا هوى" كما يضمّن محكم آياته مصنفه "الظل الممدود والماء المسكوب..." فقد يرى أن شطراً من آية قرآنية يحمل مضمون فلسفته الإرشادية والرمزية، وفي استعارتها وتضمينها للبنية القرآنية بيان لطبيعته المنهجية، في التلاحم الفني بين الرمز الصوفي والتنزيل الإلهي... (الصغير، ع. 1999: 193-195)

وقد أنشد الحلاج قصيدة النهاية وأتمّها بتناص مع كلمات من القرآن الكريم بقوله:

مضى الجميع فلا عين ولا أثر

مضى عاد وفقدان

الألى إرم

وخلفوا معشرا يحذون لبسهم

أعمى من البهم بل أعمى

من النعم (الصغير، ع. 1999: 194)

وهذا الفن الحلاجي اختص به صفوة الصوفية، من أمثال محي الدين ابن عربي وابن الفارض، وعبد الكريم الجيلي، والتستري، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن عجيبة؛ فكتاب "الفتوحات المكية" واحد من أهم كتب ابن عربي على الإطلاق وهو يعتبر عند عبد الكريم الجيلي أيضاً أعظم الكتب المصنفة في هذا العلم - التصوف - نفعاً وأكثرها لغرائبه وعجائبه جمعا، وأجلها إحاطة ووسعا تكلم فيها بالأسنة كثيرة، وأفصح عن معان غريبة خطيرة، فصرح تارة عن حالة، ورمز أخرى عن حال، وأفصح طورا عن مقصود، وأدمج أخرى عن مراد في المقال. (سامي، س. 2005: 12)

وكان من أبرز التفاعلات النصّية في "الفتوحات المكية" تناصه مع القرآن الكريم والنصوص الدينية التوراتية والمسيحية، وفيه استدعاءات لا تحصى

للأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والتراث العربي نثرا وشعرا، والخطاب الصوفي السابق له والمعاصر له، والخطاب الفلسفي والأساطير.

وتتضمنه وتأويلاته للنص القرآني تمثل بنية أساسية في نص الفتوحات، فهو دائما ما يستشهد به ويتحاور معه، ويورد آياته بين فقرة وأخرى حتى غدا ذلك كتابة على كتابة أو نسيجا على نسيج، يتصافر معه بكل المتاح من الأشكال. (سامي، س. 2005)

لهذا نقول أن النص القرآني يبقى له الحضور الأقوى في التراث الصوفي بصورة عامة، والنص الصوفي الجيلاني بشكل خاص، حيث لا يتوقف عند حدود البنية السطحية فقط، بل يندمج النصان في مستويات عميقة ومتعددة من السياق.

3- الشيخ عبد القادر الجيلاني- صوفيا وفقهيا وشاعرا:

الشيخ عبد القادر الجيلاني (الملقب بالباز الأشهب وتاج العارفين وسلطان الأولياء) واحد من كبار أقطاب التصوف، وشيخ واحدة من أوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الإسلامي، ولد سنة 470 هـ وكانت وفاته عام 561 هـ.

كان الشيخ الجيلاني صوفيا وفقهيا حنبليا، وقد تصدى الشيخ بمدرسته في بغداد للتدريس والفتوى والوعظ مع الاجتهاد في العلم والمجاهدات الروحية وكان يتكلم في ثلاثة عشر علما: في التفسير، وعلوم الحديث، والمذاهب والخلاف والأصول والنحو والقراءات... (الجيلاني، ع. 1994: 15)

جمع الشيخ الجيلاني بين الفقه والتصوف (الشريعة والحقيقة)، واعتبر التصوف الحقيقي لا يمكن تحقيقه إلا بطريقتين: التزام الشرع والبحث عن المعنى الباطني. وللشيخ أقوال كثيرة، تبين مدى التزامه الشديد بالثوابت الشرعية في خطاب الصوفي (أي التوفيق بين الحقيقة والشريعة)، منها قوله: "كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طرأ إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة، أدخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم..." (الجيلاني، ع. 1994: 21)

ومما قاله أيضا " ادخل بالظلمة في المصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تخرج عنهما، فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك فادفعه عنك واهجره، لا تقبل به ولا تعمل به، اقطع أنه من الشيطان اللعين.." (الجيلاني، ع. 1973: 19)

وكان الشيخ الجيلاني من الصوفية الذين عبروا عن تجربتهم الذوقية تعبيراً أدبياً، فترك لنا مجموعة من القصائد الصوفية والمقالات الرمزية التي يغلب عليها الطابع الشعري، لكن ظل ذلك متناثراً في عديد من المخطوطات وكتب التراجم والسير والطبقات.

إلى أن أقام د. يوسف زيدان بجمعه من أصول متعددة في كتابه الموسوم (ديوان عبد القادر الجيلاني)، الذي يعتبر أول نسخة محققة تجتمع فيها الآثار الأدبية التي تركها الشيخ الجيلاني، والذي سيكون معتمدا في هذه الدراسة.

4- سمات الشعر الصوفي عند الشيخ الجيلاني :

عبر الصوفية منذ القديم عن حقائقهم ورقائهم وهواجسهم وتجاربهم من خلال ثلاثة أشكال رئيسية: الكتابة النثرية بألفاظ اصطلاحية لا يعرفها سوى خاصة القوم، والقصص الرمزي المفعم بالتلوينات، ثم الشعر الصوفي: " والشعر عند الصوفية كشف وجودي، وديوان وجداني، تعتق فيه التجربة الروحية لتصفو من كدر هيكلها، وتظهر ذاتها بذاتها تطهيراً جَوَانِيًا، فيبدو تجوهرها وتجردها في مرآة وجودية، وما ذاتها إلا لؤلؤة كونية" (أمين أحمد، ع. 1992: 257)

والصوفية منذ فجر التصوف إلى اليوم اتخذوا الشعر قالباً تعبيرياً، ومنهم الشيخ الجيلاني الذي: " لم يكن شاعراً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما كان الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية الدقيقة؛ (زيدان، ي. دتا: 21) إذ أن الشيخ الجيلاني كان صوفياً شاعراً ولم يكن شاعراً متصوفاً كابن الفارض، فهذا الأخير أجمع القدماء والمحدثون على الإشادة بشعره والاهتمام بديوانه: "يشهد بذلك كثرة نساخه وشارحيه وناسريه، إضافة إلى ما قيل فيه من مدح وتقريظ" (يعيش، م. 2003: 254).

وقد أثنى بعضهم على ديوانه فقال: " هو من أرق الدواوين شعراً، وأنفسها درّاً برّاً وبحراً وأسرعها للقلوب جرحاً، وأكثرها على الطلول نوْحاً، إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشق مهجور، وقلب بالنوى مكسور، والناس يلهجون بقوافيه." (يعيش، م. 2003: 254).

أما شاعرنا الشيخ الجيلاني، فقد أحصى د. يوسف زيدان مجموعة من السمات تميز بها شعره، نجملها فيما يلي:

تعلو نغمات الدلال والفخر في أبيات الشيخ الجيلاني، ممّا حدا بابن عربي لاتخاذها مثالا على دلال الأولياء وزهوهم بمراتبهم عند الله ، خاصة في تلك الأحوال غير العادية التي يعايشها، والأمواج العالية من الأنوار التي يعاينها. ومن بين خصائص شعره أيضاً ما يتعمده الشاعر من سلوك سبيل الرمزية في الكتابة وضرب الأمثال، وهذه عموماً سمة من سمات الشعر الصوفي بشكل عام. وغالباً ما تختتم قصائده بأبيات تشير إلى اسمه أو أحد ألقابه المشهورة، وهي الظاهرة المعروفة باسم: التخلّص كقوله في هذه الأبيات:

- أنا بلبل الأفراح أملاً دوحها طرباً وفي العلياء باز أشهبُ
 - أنا قادريُّ الوقت عبد لقادر أكنى بمحي الدين والأصل جيلاني
 - أنا عبد لقادر طاب وقتي وجدي المصطفى شفيع الأنام
 - أنا الحسني الأصل عبد لقادر دعيت بمحي الدين في دوحة العلا
- (زيدان، ي. دتا: 178-177)

حال مقام الشيخ الجيلاني كواحد من أعلام الفقه والتصوف في عصره دون العناية بشعره وتطويله وتنميقه، فلا نجد عنده القصائد الروائع المطولة التي نجدها

عند ابن الفارض وعبد الكريم الجيلاني وغيرهما من الصوفية غير المشتغلين بالفقه، وهذا يذكرنا بعبارة الإمام الشافعي الشهير (زيدان، ي. دتا: 22):

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد
 "وعلی الحقيقة، فإنّ النظرة الناقدة لقصائد الإمام الجيلاني، لا تلحقه بكمبار
 أقطاب الشعر الصوفي، فعلى الرغم من قوة المعاني الصوفية عنده، واشتداد النّفحة
 الكشفية في أبياته إلا أن هذه الأبيات من حيث اللغة لا تخلو من ضعف".
 (زيدان، ي. دتا: 23)

5- التناص في النص الصوفي للشيخ الجيلاني:

إذا نظرنا إلى التناص كممارسة من قبل المتصوفة، فإن هذه الفئة من أكثر
 الفئات توظيفا " للتناص" في متونهم شعرا كان أو نثرا، فهم يمتحون من تراث
 الآخر (النص الفلسفي والنص الاجتماعي والنص الأسطوري...) فيأخذون من
 إنتاجاتهم لتجويد صناعاتهم وتعميق رآهم وإبداعاتهم، ويتماهون مع النصوص
 الدينية، كما يمتحون من تراثهم المكثف، أو ما يطلق عليه (حضور الصوفي في
 الصوفي).

والنص الشعري عند الشيخ الجيلاني يقوم على تلك الفكرة الحوارية مع
 النصوص الصوفية الأخرى والنصوص الدينية (القرآن والحديث الشريف) التي
 يتم استدعاؤها إلى مجال النص.

وقبل أن نتطرق إلى التناص القرآني في شعر الشيخ الجيلاني، لا بأس أن
 نعطي نماذج من تناص النص الصوفي للشيخ الجيلاني مع الحديث الشريف
 ونصوص أعلام التصوف من خلال نصوصه الشعرية أو مقالاته الرمزية:

أ- التناص مع الحديث الشريف:

نجد في النص الشعري للشيخ الجيلاني تداخلات مع نص الحديث الشريف،
 من خلال علاقة تفاعلية -تعصيدية كما يسميها د. محمد مفتاح -تقوم على الاحتكاك
 بهذه النصوص والتحاور معها، وهذا ليس غريبا فالرجل قبل أن يكون صوفيا فهو
 فقيه متمكن يشكل النص النبوي عنده أحد أعمدة خطابه الديني.

* ومن أمثلة التناص مع الحديث الشريف قوله:

قطعت جميع الحُجب للحبّ صاعداً ومازلت أرقى سائراً
 بمحبتني
 تجلّى لي الساقى وقالَ إليّ فُـمُ فهذا شرابُ الحب في
 حان حضرتي
 تقدّم ولا تخش كَشَفْنَا حجابنا تملّ بحاني والشراب
 ورؤيتني

يوجد في البيت الأول تناص مع معنى الحديث الشريف: "إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه تعالى، ما انتهى إليه بصره" (أخرجه مسلم، باب الإيمان 293- ابن حنبل: المسند 405/4، 401- ابن ماجة، المقدمة، 13) (زيدان، ي. دتأ: 112). وللصوفية أقوال كثيرة في قطع العقبات والحجب في رحلة السير إلى الله بأقدام الصدق والتجرد عن الأكوان، وطيراً بأجنحة المحبة لاخترق سماوات الأحوال والمقامات حتى تحط عصا الترحال والسفر عند خيام القرب من الله.

* قال الشيخ الجيلاني:

ويا وارث اجعلني لعلمك وارثاً ورُشدًا أُنلني يا رشيْدُ تَجَمَّلاً العلم المذكور هنا، يراد به العلم اللدني، ولهذا العلم أهله الذين اصطفاهم الله واختارهم لذلك. والبيت فيه تناص مع معنى الحديث الشريف: "العلماء ورثة الأنبياء" (صحيح البخاري) (زيدان، ي. دتأ: 173).

وتعرف تجليات العلم الإلهي عند الصوفية بالوراثية عن المقام المحمدي، وعن غيره من مقامات الأنبياء.

وبهذا يكون دعاء الإمام الجيلاني للوارث عز وجل أن يجعله من الوارثين لعلمه عن أنبيائه تعالى، وقوله بعد ذلك (رشد) فيه تناص مع قول موسى عليه السلام للعبد الصالح: "هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً" [الكهف/66] وذلك لبيان ضرورة اقتران هذا العلم اللدني بالرشد والصلاح.

ب- التناص مع النصوص الصوفية:

إذا كان من أبرز التفاعلات النصية في شعر الشيخ الجيلاني هو تناصه مع القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف، فإنه يقوم أيضاً باستدعاءات لا تحصى ولا تعد للخطاب الصوفي السابق له بشخصياته وقضاياها بعد شحنه بدلالات وإيحاءات من باب التعضيد كما ينعتة د. محمد مفتاح- احتراماً أو تبجيلاً أو توقيراً للمعاني التي يحملها النص الأصلي.

فنص الشيخ الجيلاني - شعراً ونثراً- يتناص مع الكثير من النصوص الصوفية ولا غرابة في ذلك فهو نص ولد في بيئة عربية إسلامية وتخرّج من تربة صوفية بحتة.

ومن هنا كان للتناص مع نصوص وكتابات المتصوفة السابقين إضافة جديدة لمضامين تلك النصوص، وإلقاء الضوء على أفكارهم أو تأويلها في اتجاه تتوافق فيه الحقيقة الصوفية مع الشريعة خاصة الشطحات التي لقيت معارضة من النظام المعرفي المأدلج (المعرفة التي رسمتها السلطة السياسية).

* يقول الشيخ الجيلاني في إحدى مقالاته الرمزية:

"طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة "أنا الحق" صفّاً رَ بغير لغته تعريضاً لحقته فوقف في مقام الدهشة على أقدام الحيرة، فلما أخرسه الفناء،

أنطقه الشكر، فقال: أنا الحق.. فأجابه حاجب الهيئة: اليوم قطع وقتل، وغداً قربٌ ووصل. " (زيدان، ي. دتا: 271-272)

في هذا النص تناص مع مأساة الحسين بن منصور الحلاج، ومع عبارته الشهيرة:

"أنا الحق"، وهي المقولة الحلاجية المعروفة، التي شطح بها، فأخذت بيده إلى السيّاف وكانت سببا مباشرا لمقتله ببغداد سنة 309 هـ، بعد أن جُلد وقُطعت يداه ورجلاه، وشوّه و صُلب وقُطعت رأسه وأُحرقت جثته.

إذا فالنص الجيلاني يتناص مع عبارة الحلاج لفظا " أنا الحق" ويتناص أيضا مع الطريقة التراجيدية في إعدام الحلاج من خلال عبارة "اليوم قطع وقتل .." أما خصوصية التوظيف فنلمسها أولا في حضور النص الصوفي الحلاجي ومأساته في نص الشيخ الجيلاني وثانيا محاولة الشيخ إبعاد تهمة المروق عن الدين، بهذا الصوفي العارم الذي خانته اللغة في التعبير عن الحقائق الصوفية فجرفته إلى الممنوع العقائدي ثم قادتة إلى نهاية مأساوية.

نلمس كل هذه المعاني من خلال عبارات الشيخ الجيلاني: "..طار واحد من العارفين صفر بغير لغته... أنطقه السكر.. اليوم قطع وقتل وغدا قرب ووصل..". وهناك عبارة شهيرة للجيلاني، ذكرتها غالبية المراجع، تقول: "عثر الحلاج ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده" (زيدان، ي. 1998: 39).

ويبدو أن الجيلاني قد تأكد من أن عثرة الحلاج كانت على مستوى التعامل مع اللغة (لغة الذوق)، فحاول تأويل كلامه على محمل حسن، وتكوين الشيخ الجيلاني العلمي وخلفيته الفقهية تؤهلانه لهذه المهمة التوفيقية (بين الشريعة والحقيقة).

* قال الشيخ الجيلاني شعرا (زيدان، ي. دتا: 113):

تجلّى لي السّاقى وقال إليّ فمُ
فهذا شرابُ الحب في حان

حضرتي

تقدم ولا تخش كشفنا حجابنا
تملّ بحاني والشراب

ورؤيتي

في عجز البيت الثاني تناص مع صدر البيت الثالث في رباعية رابعة العدوية أو التي يُروى أنها تفوهت بها (الفقيه، ش. 2008: 38):

أحبك حبيب حبّ الهوى
وحبّا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عن سواكا

و أما الذي أنت أهلّ له
فكشفك للحجب حتّى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك

كشف الحجاب هو سقوط موانع المكاشفة، بما يفضي إلى المشاهدة والرؤية، وللصوفية كلام مطول في كشف الحجب النورانية والظلمانية، وتهيؤ القلب لقبول التجليات الإلهية.. (زيدان، ي. دتا: 113).

* قال الشيخ الجيلاني :

ولولا رسول الله بالعهد سابق
لأغلقْتُ أبواب الجحيم
بعظمتي
مريدي لك البشرى تكون على الوفا وإن كُنْتُ في همٍّ أغثُك
بهمتي

في الشطر الثاني من البيت الأول تناص مع أقوال بعض الصوفية نذكر منها قول البسطامي: " ما النَّار؟ لأستندنَّ إليها غذا وأقول: اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنَّها." (بدوي، ع: 1978: 31).
وقول الشبلي أيضا: " إنَّ لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها" (بدوي، ع: 1978: 43).

وهذه الأقوال في جملتها إشارات رمزية لتحقيق الصوفي بمقام الشفاعة والغوثية، فالصوفية يعتقدون بشفاعة الأنبياء والأولياء: " وقد إرتبطت الشفاعة بالغوثية التي إرتبطت بدورها بالقطبية، بحيث اقترنت دوما في تعبيراتهم كلمتي (القطب- الغوث) فالغوثية تعني شفاعة القطب والأولياء في الخلق، سواء في الدنيا أو الآخرة" (زيدان، ي. دتا: 163).
* قال الشيخ الجيلاني:

فلا عالمٌ إلا بعلمي عالم ولا سالكٌ إلا بفرضي وسُنَّتِي
الإشارة هنا إلى تجلي العلم الإلهي، وتحقيق القطب بمنازل المعرفة الربانية المحيطة بكل علم، حتى يصير هذا القطب واسطة بين الخلق والخالق، وهو مقام من أعلى مقام الطريق، والنص هاهنا يتمهى مع ما أشار إليه ابن الفارض في التائية الكبرى:

فما عالم إلا بفضلِي عالم ولا ناطق في الكون إلا بمدحتي (زيدان، ي. دتا: 97).
وعليه، فقد أثبتت هذه الأمثلة والشواهد على حضور النصوص الصوفية في سياق النص الصوفي الجيلاني، محققة ظاهرة "التناص"، سواء في بنيته السطحية أو العميقة، فترى أبيات أو مقاطع أو شخصيات صوفية لها دلالتها ورمزيتها في الفكر الصوفي، مضمنة كما هي أحيانا. وقد أسهم ذلك في تشكيل نص الشيخ الجيلاني لغويا ودلاليا وتعزيز تلك النصوص المقتبسة إبستمولوجيا وإديولوجيا، (أي تبجيلها واحترامها وتوقيرها حسب د. محمد مفتاح).

6- التناص القرآني في شعر الشيخ الجيلاني:

الشيخ الجيلاني نشأ في بيئة إسلامية ويعتبر القرآن الكريم قطب الرchy التي تدور حوله نصوص هذا المتصوف، والمحور الأساسي لوجوده وفلسفته.
ومن هنا انزاح النص القرآني باعتباره نصا مركزيا في النسيج الفكري والوجداني للشيخ الجيلاني، إلا أن توظيفه للتناص جاء مطبوعا بالطابع الصوفي،

أي التناص القرآني في النص القادري له خصوصيته باعتبار أنه ينتمي إلى فضاء معرفي له لغته الخاصة وقضاياه (الفضاء الصوفي).

تمثل علاقة الشيخ الجيلاني مع النص القرآني علاقة الفقيه الصوفي فهو يستشهد بهذا النص ويتحاور معه ويورد آياته لفظاً أو معنى، أو يستدعي بعض أسماء هؤلاء الأعلام الوارد ذكرهم في النص القرآني وقصصهم (الرسل والأنبياء...)، أو يتناص مع أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره، أو يتناص مع آيات بها ذكر لذاته تعالى وصفاته أو ذكر للإنسان المؤمن وصفات المصطفين.

ولا يأتي هذا التناص على سبيل التحلية الفنية، ولكن يأتي ذلك لأجل تعميق الدلالات بما ينسجم مع مقاصد الشاعر وأغراض الشعر الصوفي، لأن تلك الأسماء أو تلك العبارات القرآنية ترتبط بسياقات شتى أو بعالم واسع من الخطابات حسب تعبير كرسيفا.

وسنعرض الآن أمثلة من تناص شعر الشيخ الجيلاني باعتباره نصاً صوفياً مع النص القرآني، مع الإشارة إلى خصوصية التوظيف وأبعاده:

* يقول الشيخ الجيلاني:

أنا من رجال لا يخاف جليسهـم رَيْبَ الزَّمان ولا يَرى ما يرهـب
يشير الشيخ الجيلاني بالرجال هنا إلى "الأولياء"، وبالتالي فهو يتناص مع ما ورد في حقهم من خلال قوله تعالى: "ألا إِنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" [يونس/62]، وقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن الكريم. كما يتناص البيت الشعري مع ما جاء في الحديث الشريف من أن هؤلاء الرجال: "لا يشقى بهم جليسهـم" (الترمذي: كتاب الدعوات، ابن حنبل: المسند). (زيدان، ي. دنا: 98)

* يقول الشيخ الجيلاني:

أنا كنت في العليا بنور محمّدٍ وفي قاب قوسين اجتماع الأحبةِ
(زيدان، ي. دنا: 89).

في الشطر الثاني من البيت إشارة إلى القرب من الله تعالى على طريقة أهل القول في الكلام حيث درج الصوفية منذ القديم للتعبير عن هذه الحالة بعبارة: (قاب قوسين)، يقول القاشاني: "قاب قوسين: مقام القرب الأسماي في الأمر الإلهي... وهو الإتحاد بالحق مع بقاء التمييز..." [القاشاني، 1995: 79].

وفي عبارة الشيخ الجيلاني تناص مع قوله تعالى: "فكان قاب قوسين أو أدنى.." [النجم/9].

* يقول الشيخ الجيلاني:

وأمرني بأمري الله إن قلت كن يكن وكلُّ بأمر الله فاحكم بقدرتي
وأصبحتُ بالوَادِ المقدّس جالسا على طور سينا قد سموت بِخَلْعَتِي (زيدان، ي. دنا: 107).

الوادي المقدس طور سينا وهو رمز صوفي لمراتب علوية يرقى إليها
الواصلون إلى حضرة الحق تعالى، ولا يتحقق الوصول إلى الحضرة الإلهية إلا
بعد التجرد "وخلع النعلين"، والنعان هما: النفس والجسد، وهو رمز صوفي آخر،
أي لا بد من التجرد عن النفس والجسد لتحقيق الرؤية والمعية والصحبة والحضرة
الدائمة مع الله. (محمود، م. بتا: 147)

ومن خلال هذه المعاني الصوفية يتحقق التناص مع قصة موسى عليه السلام في
مناجاته لربه والتي اشتق الصوفية منها رموزهم تلك: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى،
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" [طه/11، 12].

*يقول الشيخ الجيلاني:

ولأجلنا وجد الزمان وكونه فالذَّهْرُ عَبْدٌ وَالزَّمانُ غلامًا
ولنا الولاية من: أَلستَ بربكم رشقت قلوب المنكرين سهامنا
النص في البيت الأول يتناص مع معنى أحد أبيات ابن الفارض في تائيته
الكبرى حين يقول:

لولاي لم يوجد وجودٌ ولم يكن شهودٌ ولم تعهد عهود
بذمتي. (زيدان، ي. بتا: 168)

ويمكننا إدراج هذا التناص "ضمن الحركة المعقدة لعملية الإثبات والنفي
المتزامنين لنص آخر " التي أشارت إليها كريستيفا. (الحسني، م.: 2007: 44)
وفي البيت الثاني تناص مع الآية الكريمة: "وإذا أخذ ربك من بني آدم من
ظهورهم ذريّاتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم
القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" [الأعراف/172]

وتبدو خصوصية توظيف التناص في البيت بما تحمله عبارة " ألست بربكم"
عند الصوفية إذ تعني: النشأة السابقة على آدم وهو إشارة إلى عالم الذر، أي عالم
الأرواح "في عالم اللاهوت" قبل خلق الأجساد حيث أخذ الله تعالى الميثاق بقوله:
"ألست بربكم" وتلك هي فطرة التوحيد التي فطر الخالق الناس عليها، من قبل
وجود آدم، ويرمز الصوفية إلى ذلك باصطلاحات عديدة مثل: الخلق الأول، خمرة
التوحيد، شراب ألست، عالم الأرواح، الذر.. السماع الأول، العهد الأول..
(قيداري، ق. 2004 : 307-308)

*يقول الشيخ الجيلاني (زيدان، ي. بتا: 98):

أنا كنتُ مع نوحٍ أشاهدُ في الوري بحارًا وطوفانًا على كفٍّ
قُدِّرَتي

وكنْتُ وإبراهيمَ ملقى بناره وما برَدَ النَّيرانَ إلّا بدعوتي
وكنْتُ مع إسماعيلَ في الذَّبْحِ شاهدًا وما أنزلَ المذبوح إلّا
بفتيتي

وكنْتُ مع يعقوبَ في غشو عينه وما برئتُ عيناه إلّا بتفلتي

وكننت مع إدريس لما ارتقى العلا وأسكن في الفردوس أحسن
جنة

وكننت مع موسى في مناجاة ربه وموسى عصاه من عصاي
استمدت

وكننت مع أيوب في زمن البلا وما برئت بلواه إلا بدعوتي
وكننت مع عيسى وفي المهد ناطقا وأعطيت داودًا حلاوة
نغمتي

ترتبط أعلام القرآن الكريم بالقصص الديني الذي قصه الله تعالى على الرسول عليه الصلاة والسلام، لإثبات الوحي والرسالة وبيان أن أساس الدين كله واحد، وأنه كله من عند الله، وأن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه، وأن الله ناصر أنبياءه ومهلك مكذبيهم في النهاية، وأنه تعالى المنعم عليهم وعلى أصفائه وأنه القادر على الخوارق... (قطب، س. دنا: 118-126).

في الأبيات الشعرية للشيخ الجيلاني تناص مع معاني آيات بها ذكر لأعلام القرآن الكريم وقصصهم، واستدعاؤه لهؤلاء الأعلام مشفوعين بقصصهم في شعره لم يكن صنعة لفضية، بل كان من قبيل التلميح إلى معان ودلالات خاصة تقتضيها التجربة الصوفية، التي ينبغي قراءتها هنا في ضوء الاتحاد بالحقيقة المحمدية (نور محمد السابق على الخلق).

تقوم نظرتة الحقيقة المحمدية أو "النور المحمدي" على الاعتقاد بأن النبي محمدا هو في حقيقته ليس بشرا، وإنما هو نور أزلي أبدي، ظهر في آدم، وصار ينتقل في الأنبياء من بعده، حتى ظهر بصورة النبي محمد، ويذكر نيكلسون أن الجوهر الروحي لمحمد هو أول شيء خلقه الله، وهو يدرك بوصفه نورا سماويا تجسد في آدم ثم الأنبياء من بعده حتى محمد الذي ختم ظهورهم (سليطين، و. 1995: 114).

وتظهر لنا الحقيقة المحمدية عند الشيخ الجيلاني في صورة الإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود فهو يصدر عنها في هذه الأبيات، وينوه بها مستبشرا إلى كونه وريث هذا النور المحمدي الذي تجلى في آدم والأنبياء قبله في نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب وإدريس.

يتناص الشيخ الجيلاني في أبياته تلك مع النص القرآني من خلال استحضاره لمعاني تلك الآيات القرآنية التي تتعرض إلى قصص الأنبياء ودلالات شخصياتها ورمزيتها، أما خصوصية توظيفه لهذا التناص، فيكمن في استحضاره لتلك المعاني القرآنية ولكن في سياق الخطاب الصوفي وتأويلاته وفق نظرية الحقيقة المحمدية كما ذكرنا.

فالشيخ الجيلاني يتعرض في نصه الشعري إلى أسماء الأنبياء وقصصهم ويتناص مع الآيات التي تشير إلى ذلك في القرآن الكريم وفق الآتي:

- يشير في البيت الأول إلى قصة نوح مع الطوفان، وهنا يتناص مع [سورة هود الآيات: 36-42]
- وفي البيت الثاني إشارة إلى قصة إبراهيم مع النار ويتناص مع [سورة الأنبياء الآية: 69]
- ويحيل البيت الثالث على قصة إسماعيل مع الذبح ويتناص بذلك مع [سورة الصافات الآيات: 102-107]
- والبيت الرابع يشير إلى القصة القرآنية الخاصة برجوع البصر إلى يعقوب عليه السلام حين ألقى إليه البشير قميص يوسف، وفيه تناص مع [سورة يوسف، الآيات: 93-96]
- ويتعرض البيت الخامس إلى إدريس ورفعة المكانة، وفي ذلك إشارة إلى [سورة مريم، الآية: 57]
- وفي البيت السادس حديث عن مناجاة موسى لربه على طور سيناء، وانقلاب عصى موسى إلى حية تسعى، وهنا يمكن مراجعة الآيات التالية: [سورة النمل، 9/10- القصص، 31-طه/18-الأعراف/107- الشعراء/32]
- ويشير البيت السابع إلى كشف بلاء أيوب وكربه، وفي هذا تناص مع معاني الآيات التالية: [سورة الأنبياء/88، 8]
- وفي البيت الأخير إشارة إلى عيسى حينما كلم الناس في المهد وفي هذا تناص مع [سورة آل عمران الآية/46]، وإشارة أيضا إلى قصة مزامير داود التي كان يناجي بهاربه وهنا تناص مع أحد الأحاديث النبوية الشريفة.
- وفي الأخير يمكننا أن نسجل بعض الملاحظات عن خصوصية التوظيف، أي توظيف النص القرآني في سياق النص الصوفي الجيلاني:

 - 1- النص الشعري الجيلاني يستوعب النص القرآني ويتناص معه " لغة وسردا ورؤية وأعلاما.."، ويمنحها دلالات تنمائها وخطابه الصوفي.
 - 2- النص الصوفي عند الشيخ الجيلاني يتناص مع القرآن الكريم كتأييد له وإحياء له لاشك في ذلك، أي وفق علاقة تعضيديية بحسب تعبير د. محمد مفتاح، ولكن مع إعطاء بعد دلالي جديد للنص وليس استحضارا له فقط، أي توظيف التناص وفق رؤى وفلسفة الخطاب الصوفي وغاياته.
 - 3- النص القرآني له حضور قوي في النص الصوفي الجيلاني "شعرا أو نثرا" حيث لا يقف التناص عند حدود التوظيف الخارجي، بل يتعداه إلى حدّ يندمج فيه النصان في مستويات متعددة من السياق كما مر بنا.
 - 4- التناص مع القرآن الكريم يمثل أيضا تجديدا منهجيا في إبداعية النص الصوفي بشكل عام، وهو هنا يساوق صاحبها بين مكنون الرمز الصوفي وجمالية الرمز الفني في التصوير القرآني.

قائمة المصادر و المراجع:

- 1- د. الحسن، م. 2007: "مفهوم التناص، خصوصية التوظيف في الشعر الإسلامي المعاصر"، ط2. الدار البيضاء، المغرب. دار النجاح الجديدة.
- 2- كريستيفا، ج. 1991: "علم النص" ترجمة: فريد الزاهي، ط2. الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر.
- 3- د. أمين أحمد، ع. 1992: "التراث الأدبي للحلاج الصوفي"، ط2. القاهرة، دار المعارف.
- 4- د. الصغير، ع. 1999: "التصوف كوعي وممارسة"، ط1. الدار البيضاء، المغرب. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 5- د. سحر سامي، س. 2005: "شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية" (لمحي الدين بن عربي)، (دط). القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 6- الجيلاني، ع. 1994: "رسالة في الأسماء العظيمة"، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول. ط2، دمشق، دار السنابل.
- 7- الجيلاني، ع. 1973: "فتوح الغيب"، (دط). مصر، مطبعة البابي الحلبي وأولاده.
- 8- د. زيدان، ي. (دنا): "ديوان عبد القادر الجيلاني، القصائد الصوفية، المقالات الرمزية" (دط). القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم.
- 9 - محمد يعيش، م. 2003: "شعرية الخطاب الصوفي، الرمز الخمري عند ابن الفارض نموذجاً"، (دط). فاس، سبياما.
- 10- زيدان، ي. 1998: "المتواليات، دراسات في التصوف"، ط1. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- 11- شير الفقيه، ش. 2008: "الحب الإلهي وتطوره عند المتصوفة"، ط1، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.
- 12- د. بدوي، ع. 1978: "شطحيات الصوفية". ط3، الكويت، وكالة المطبوعات.
- 13- القاشاني، 1995: "اصطلاحات الصوفية"، ضبطه وعلق عليه موفق فوزي الجبر، ط2. دمشق، دار الحكمة.
- 14 - محمود، م. (دنا): "رأيت الله"، ط4، القاهرة، دار المعارف.
- 15- قيداري، ق. 2004: "دلالية مصطلح السماع في الفكر الصوفي" مجلة الأثر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، العدد: 4.
- 16 - قطب، س. (دنا): "التصوير الفني في القرآن الكريم"، (دط). بيروت، القاهرة، دار الشروق.
- 17- سليطين، و. 1995: "الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد"، ط2. القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع.